الفصل الأول

اتجاهات الكتابة التاريخية فى مصر خلال القرن التاسع عشر

• أهمية كتابات الجبرتى فى تاريخ مصر الحديث • كتابات الجبرتى عن محمد على وما ترتب عليها • دور رفاعة الطهطاوى وتلاميذه فى حركة التنوير وفى تطوير الدراسات التاريخية • على مبارك ودراساته حول تاريخ مصر العمرانى والاجتماعى والتعليمى • معاصرو على مبارك وكتاباتهم • ميخائيل شاروبيم ومواكبة الأسلوب الحديث فى الكتابة التاريخية • كتابات الأفغانى وأثرها فى انبعاث الكتابة الوطنية • كتابات رجالات الثورة العرابية كلون من ألوان الكتابة التاريخية .

تبدأ حركة التأليف التاريخى لمصر الحديثة بعبد الرحمن الجبرتى الذى عاش عصر انتقال مصر فى العصور الوسطى إلى العصر الحديث تلك الفترة التى اتسمت بالإضطراب الشديد والتغير السريع ، والتى شملت أواخر العصر العثمانى الأول وعصر الحملة الفرنسية ونحو عشرين سنة من حكم محمد على . وهذه الفترة من تاريخ مصر تعد الحد الفاصل بين عصر الركود والهدم والتخريب ، وعصر النهضة والانشاء والتجديد.

وكتابات الجبرتى فى مؤلفيه " عجائب الآثار فى التراجم والأخبار [١] " ومظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس [٢] - أو زوال دولة الفرنسيس فى بعض النسخ - تعد بمثابة الركائز الأساسية فى كتابة تاريخ مصر الحديث خاصة وأن صاحبها ذكر الحقائق التاريخية دون مواراة أو مجاملة لحاكم أو لغيره ، وعالج مشاكل الحياة والمجتمع المصرى معالجة البصير بالأمور وحكم عليها حكما مقبولا مما جعل المؤرخ البريطانى "توينبى" يصفه بأن مثل توكيد بدس اليونانى الذى وقع عليه عبء كتابه تاريخ حقبة شاذة من حياة الحضارة التى ترعرع فى ربوعها ، وأن فى وسع مصر أن تفاخر بالجبرتى وان تباهى به سائر المتحدثين بالعربية [٣] .

ويجعل " شفيق غربال " يصفه بأنه أخذ من كل شيء بطرف ، وله فى كل دراسة مقام محمود [٤] .

---

١ - طبع عدة طبعات بعد أن ظل محجوبا لفترة ليست بالقليلة ، ويعد أن آذن الخديوى توفيق بطبعه طبع لأول مرة فى عام ١٢٩٧هـ / ١٨٧٩ بالمطبعة الأميرية ببولاق ثم تكرر طبعه فطبع بالمطبعة الشرفية فى عام ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م فى أربعة أجزاء وقامت وزارة التربية والتعليم بتحقيقه تحت اشراف الأستاذ محمد شفيق غربال فى عام ١٩٥٨ كما ترجم إلى الفرنسية فى تسعة أجزاء .

٢ - يؤرخ هذا الكتاب للحملة الفرنسية على مصر ، وكان الجبرتى قد أهداه إلى يوسف باشا القائد العثمانى الذى دخل القاهرة فى أعقاب خروج الفرنسيين منها ، وقد قامت وزارة التربية والتعليم بتحقيقه فى عام ١٩٦١ . والجدير بالذكر أن الجبرتى قد أفاد فى تاريخه من جهود بعض المعاصرين له أمثال اسماعيل الخشاب وحسن العطار كما أفاد أيضا من جهود من سبقه من المؤرخين .

٣ - أرنولد توينبى : عبد الرحمن الجبرتى وعصره - ضمن كتاب عبد الرحمن الجبرتى دراسات وبحوث ص ١٥ .

٤ - محمد شفيق غربال : عبد الرحمن الجبرتى - ضمن كتاب عبد الرحمن الجبرتى دراسات وبحوث ص ٩ - ١١ .

وجعل " عزت عبد الكريم " يصف ما كتبه بأنه كان على مستوى عال من الدقه والتحرى والإضافة خلال ذلك المنعطف الذى كانت تجتازه مصر [١] .

وجعل " محمد أنيس " يقول عنه أن أهم ما يميزه هو دقة المؤرخ واستقصاؤه للحوادث ، وموضوعيته هذا فضلا عن أنه كتب عن عصور ثلاثه هى مصر العثمانية والحملة الفرنسية وظهور محمد على [٢] .

يضاف الى ذلك أن البعض وصف ما كتبه بأنه أعظم تواريخ مصر فى القرنين الثانى عشر ، والثالث عشر الهجريين (٣) وأنه تاريخ ممتاز للحوادث التى وقعت فى مصر فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الهجريين ، وانه من أعدل واضبط المؤلفات التاريخية التى تصف أحداث زمانها بصدق (٤) ويمكن ان نرجع ذلك إلى ما يلى :

١ - يعد ما كتبه الجبرتى وثيقة تاريخية هامة وفريدة فى تاريخ مصر السياسى والاجتماعى خاصة وأنه يحمل بين جنباته صورة مفصلة عن حياة المصريين الاجتماعية، ويتضمن التأثيرات الموضوعية للحملة الفرنسية على مصر ، كما يتضمن فترة هامة من حكم محمد على بما لها وما عليها . فقد عاش الجبرتى عصر انتقال مصر من حال إلى حال ، وصوّر ما تحمله أهلها من مشقات ودوّن ما

---

١ - من تقديم عزت عبد الكريم للدراسات والبحوث التى قدمت خلال ندوة الجبرتى التى أقامتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية فى ابريل ١٩٧٤ .

٢ - محمد أنيس : الجبرتى ومكانته فى مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى ، دراسة ضمن بحوث الندوة .

٣ - راجع ما كتبه ماكدونالد Macdonald فى ترجمته للجبرتى فى دائرة المعارف الإسلامية مادة " جبرتى " وما كتبه إدوارد وليم لين فى كتابه الأحوال والعادات فى مصر الحديثة

The, Manners , customs of the modern

Egyptian, london, 1836

٤ - أسدرستم : المحفوظات الملكية المصرية ، المجلد الأول ١٨١٠ - ١٨٣٢ تحت عنوان " ما لا يستغنى عنه الباحث "

رأى وما سمع وما أحس دون أن ينحاز لحاكم أو لسلطة فعلى الرغم من تكوينه الديني ، فقد كان رجل دين ودنيا أخذ من كل شيء بطرف فاشاد بالمظاهر الايجابية لسياسة الفرنسيين في مصر أحيانا وندد بأعمالهم المنافية للشرع والدين في أحيان أخرى فامتدح رفضهم للسخرة ، وتشكيلهم الديوان ، واهتمامهم بتنظيم القضاء وعنايتهم بالنظافة ، ومنعهم دفن الموتى في المقابر القريبة من المساكن ، وعدالتهم في الأحكام خاصة خلال محاكمتهم لسليمان الحلبي قاتل كليبر حيث لم يبادروا بقتله بل سألوه وحاكموه وناقشوه وناقشوا الشهود ، كما أبدى اعجابه بنشاطهم العلمي ورغبتهم في البحث والمعرفة وتنظيمهم لقاعة المطالعة التي خصصوها للقراء [1] وتطلعهم الزائد الى العلوم فعندما شاهد التجارب العلمية التي أجراها أمامه بعض علماء الفرنسيين قال : لهم تطلع زائد للعلوم وأكثرها الرياضة ومعرفة اللغات واجتهاد كبير في معرفة اللغة والمنطق ويدأبون في ذلك الليل والنهار، وعندهم كتب مفردة لأنواع اللغات وتصاريفها واشتقاقاتها بحيث يسهل عليهم نقل ما يريدون من أي لغة كانت إلى لغتهم في أقرب وقت .. وعندهم الآلات الفلكية الغريبة المتقنة الصنعة وآلات الارتفاعات البديعة العجيبة التركيب الغالية الثمن كما أعرب عن دهشته مما شاهده عندما زار المجمع العلمي الفرنسي بقوله " ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا " [2].

وتزداد قيمة ما كتبه الجبرتي من كونه عاصر معظم الأحداث التي كتبها وشارك في بعضها أحيانا ، وتابع بعضها في أحيان أخرى ، وساعده في ذلك اتصاله بالجهات

---

١ - من المفيد الإشارة إلى أن ما كتبه الجبرتي في " مظهر التقديس " يختلف عما كتبه في " عجائب الآثار " ففي مظهر التقديس يخرج الجبرتي عن الموضوعية أحيانا ، وينظر إلى الحوادث بعاطفته الدينية والوطنية فيرى كل ما هو فرنسي كريه ، ويكفي أن يكون الحكم غير اسلامي لينتقده ، ولكنه في عجائب الآثار نخلى عن هاتين العاطفتين .

للتفاصيل انظر د. محمد أنيس : الجبرتي بين مظهر التقديس وعجائب الآثار ، مجلة كلية الاداب المجلد الثامن عشر ج١ مايو ١٩٥٦ ص ٥٩ - ٧٠ .

٢ - الجبرتي : عجائب الآثار ج٣ ، القاهرة ، المطبعة الأميرية صفحات ٢٦ ، ٣٤ ، ٣٥ .

الرسمية يومئذ ، وتعيينه عضوا فى الديوان العام الذى أنشأه الفرنسيون بالقاهرة للاستعانة به على ضبط النظام فجاء ما كتبه سجلا حافلا التزم فيه جادة الحيدة والانصاف وقد عبر عن ذلك فى مقدمة كتابه بقوله "لم أقصد بجمعه خدمة ذى جاه كبير أو طاعة وزير أو أمير ولم أداهن فيه دولة بنفاق أو مدح أو ذم مباين للأخلاق لميل نفسانى أو غرض جسمانى" .

وحول موضوعية الجبرتى وعدم انحيازه لارضاء الحاكمين وتغلب الموضوعية على الذاتية فى كتاباته نذكر .

١ - على الرغم من دفاع الجبرتى عن العثمانيين فى العديد من المواقف فقد أعرب عن خيبة أمله فى عودتهم إلى مصر عقب خروج الفرنسيين منها لشعوره أن الحكم الفرنسى فى بعض الأحيان كان خيرا من الحكم العثمانى .

٢ - على الرغم من كراهية الجبرتى لمحمد على لما رآه من ضروب العنف والاستبداد والقسوة التى وقعت فى عهده ، ووضعه لأدوات الانتاج فى يده ، وقيامه بالغاء الالتزام الذى أضير منه شخصيا فقد كانت كتاباته عنه فى معظم الأحيان تتسم بالموضوعية فأشاد بمحمد على فى بعض المواقف وانتقده فى مواقف أخرى ، وعن مواقف الإشادة بمحمد على نذكر أنه أشاد بفضله فى تعمير الاسكندرية ووصف ذلك العمل بأنه من محاسن الأفعال التى عجز السابقون عن القيام بها ، كما أشاد به عندما قام بتشجيع أبناء مصر من النبهاء فذكر أنه عندما ابتكر مصريا يدعى "حسين شلبى عجوة" آلة لضرب الأرز وتبييضه تدور بطريقة سهلة توفر على الناس جهدهم وطاقاتهم وعمل لها مثالا من الصفيح وقدمه لمحمد على أنعم عليه الباشا بالأموال وأمره أن يذهب إلى دمياط ليقيم فيها مصنعا تستخدم فيه هذه الآلة التى اخترعها [1] .

أما عن عن مواقف انتقاده لمحمد على فعلى الرغم من أنه كان يعلم جيداً أن ذلك سيسبب له المتاعب ، وقد يعرض حياته وحياة اسرته للخطر فانه كان جريئا وأمينا

---

١ - الجبرتى : عجائب الآثار جـ ٤ ص ٢٧٢ .

في إتهامه له فذكر " أن من طبعه الحسد والشره والطمع والتطلع لما في أيدي الناس وارزاقهم [١] " كما تعرض لموقف محمد على من دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية بالنقد فأعرب عن تعاطفه مع رجالات الدعوة واقتناعه بآرائهم، وأبدى تبرمه من قيام محمد على بإثقال كاهل المصريين بالضرائب لتدبير تكاليف الحمله فقال " ويجعل على كل فدان ستة قروش وسبعة وثمانية وذكر أنها مساعدة على حروب الحجاز [٢] " كما ذكر أن جنود محمد على كانوا يخطفون من الفلاحين " السمن والجبن والتبن والبيض وغير ذلك [٣] " بحجة سفرهم الى الحجاز لدرجة أن قل اللحم والسمن والجبن خاصة بعد أن استولى محمد على على مواشى الفلاحين وأغنامهم [٤] .

وإلى جانب ذلك فإنه يمكن القول أن الجبرتى كان وسطا فى بعض الأحيان فى حكمه على محمد على ومن ذلك قوله " له ممنوحة لم تكن لغيره من ملوك هذه الأزمان قلو وفقه الله لشئ من العدالة على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطاولة لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه [٥] .

وهكذا يتضح أن الجبرتى لم يتجن على محمد على بل كان منصفا فى عرضه لأعماله فذكر ماله وما عليه وهذه هى إحدى شيم المؤرخ الحقيقى الذى لا يحابى ولا يجار

---

١ - عجائب الآثار جـ ٣ ص ٣٤٢ - ٣٤٤ .

٢ - نفسه جـ ٣ ص ٣١٣ .

٣ - نفسه جـ ٣ ص ٣١٩ .

٤ - نفسه جـ ٤ ص ٩٠ وللتفاصيل انظر د. عبد المنعم الجميعى : دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى كتابات المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتى : الرياض ، العدد الأول من مجلة جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية .

واللافت للنظر أنه على الرغم من أن الجبرتى كان قاهريا والريف كان على هامش حياته إلا انه كان على علم بحياة الفلاحين خاصة وانه كان يمتلك ارضا بقرية " ابيار " بالقرب من كفر الزيات لتفاصيل ذلك انظر دراسة للدكتور رءوف عباس تحت عنوان « تصوير الجبرتى للمجتمع الريفى ندوة الجبرتى ص ٤١٣ .

٥ - عجائب الآثار جـ ٣ ص ٥٢٨ .

لأحد مهما عظم نفوذه ، ولا يغمط الحقيقة حقها مهما كانت العواقب ، وربما لو عاش الجبرتي فترة أطول وشاهد الطور الأخير من حكم محمد علي لتغير موقفه تجاهه خاصة وأن الجبرتي توقف في كتابته عند عام ١٢٣٦هـ/ ١٨٢١م أي في وقت كانت جهود محمد علي العمرانية والحضارية لم تكن قد اتضحت بعد .

٣ – يرجع الفضل للجبرتي في تدوين تاريخ مصر وحوادثها وتراجم رجالها في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين وبدون ما كتبه كان المؤرخون يفتقدون العديد من حوادث تلك الحقبة حقيقة هناك كتاب " ذكر تملك الفرنساوية للديار المصرية " للمعلم نقولا بن يوسف الترك اللبناني [١] ، وهناك كتاب " تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين " للشيخ عبدالله الشرقاوي شيخ الأزهر خلال تلك الفترة[٢] ولكن هذين المصدرين العربيين يشوبهما الكثير من عوامل النقص والقصور فالأول مال نحو الجانب الفرنسي والجاليات الأجنبية في مصر فمدح بونابرت ورثى كليبر وما كتبه لا يرقى إلى كتابات الجبرتي ، وجُلّ ما يحمد له أنه حفظ لنا بعض المنشورات التي أصدرها الجبرتي ، والثاني كان أول من استقبل الأتراك العثمانيين بعد خروج الحملة وألف كتيبا بناء على طلبهم ، ولكن ما كتبه ليس فيه عن الحملة الفرنسية سوى صفحات قليلة لا قيمة لها بالنسبة للمؤرخ اللهم إلا من جهة صدورها من رجل كان شيخا للأزهر .

٤ – كتب الجبرتي تاريخا بلا عاطفة وكان رائده الصدق فيما كتبه فهو يلم بالشوارد وبدون ويقيد ولكنه لا يلون بشعور ولا يضفي باحساس[٣] فعندما تحدث عن الثورات التي قام بها أهل القاهرة من الفرنسيين اتهم بعض زعمائها بأنهم من الأغرار

---

١ – عمل في خدمة الأمير بشير الشهابي ، وحضر إلى مصر قبل الحملة الفرنسية بزمن قصير ، والكتاب طبع في باريس مع ترجمة فرنسية له .

٢ – كان رئيسا للديوان أيام الفرنسيين وقد ترجم له الجبرتي في وفيات ١٢٢٧هـ . ومن المعروف أن الشيخ الشرقاوي تعاون مع الفرنسيين وانبهر بتفوقهم لذلك كان اختياره كرئيس للديوان الأول اختيارا مقصودا من جانب بونابرت .

٣ – محمود الشرقاوي : دراسات في تاريخ الجبرتي – مصر في القرن الثامن عشر جـ١ ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ١٩٥٥ ص ٢٩ .

الافاقين كما سمى القائمين بالثورة أحيانا بالذعر واحيانا بالحشرات مما يؤكد طبيعته البعيدة عن العنف ، وعندما تطرق إلى مساوىء الحكم الفرنسى لم يفته الاشادة بعدالتهم خلال محاكمتهم سليمان الحلبى قاتل كليبر .

٥ - بساطة الجبرتى وعدم انسياقه إلى التفاخر بنفسه أو بأعماله ، فعلى الرغم من اشتراكه فى الديوان الذى ألفه مينو لم يردد ذلك صراحه فى كتابه ، وعندما تعرض لذكر الديوان لم يذكر اسمه صراحه وانما قال كاتبه .

٦ - كتب الجبرتى مؤلفه بطريقة الحوليات واليوميات فى إفاضة وتفاصيل ممتعه ، وبشكل جعل تعيين الأماكن والمواقع ظاهرة واضحة فى روايته . فلا يورد حدثا من حوادث الحرب أو الثورات او المواكب والحفلات العامة ولا سيما فى القاهرة إلا قرنه بتحديد الأماكن والمواقع من شوارع وميادين ودروب ومنازل بحيث نستطيع من خلال روايته أن نصور معالم القاهرة فى عصره واضحه جليه .

٧ - إن كتابات الجبرتى أشبه بالتلال الأثرية لا تكاد تحفر فيها حتى تجد تحفه اثرية نادرة ، وكلما ازددت فى الحفر عثرت على اللآلئ والجواهر ، ومع ذلك فان هذا الحفر يحتاج إلى صبر ومثابرة واناء حتى يمكن استخراج هذه النفائس من الأتربة العالقه بها [١] .

ومع كل ذلك فمما يلاحظ على كتابات الجبرتى أنه كتب عن القاهرة أكثر مما كتب عن مصر كلها فالحوادث التى تعرض لها من الوجهين القبلى والبحرى كانت على هامش كتاباته يضاف الى ذلك أن من يقرأ الجبرتى يرهقه كثرة استعماله للعامية والتعبيرات الشعبية المصرية مثل كلمة " شطح " أى ارتفع وكلمة " قشلان " بمعنى مفلس وكلمة "وثارت كرشه" أى زحام وكلمة " النفخه " بمعنى الغرور كما يرهقه كثرت الأغلاط وعدم الترتيب العلمى ، وعدم تناسق الروايات والحوادث التى يتعرض لها وقد لا يعيب هذا الجبرتى بقدر ما يعبر عن طبيعة عصره ومعاييره ، فقد تأثر الجبرتى بطابع عصره من ناحية انحطاط الأسلوب ، وشيوع العجمة فى التراكيب والتردى فى الكثير من الأخطاء

---

١ - أحمد حافظ عوض : فتح مصر الحديث ص ٤٣٥ - ٤٣٦ .

النحوية واللغوية لذلك فالذين لا يأخذون الأمور بظواهرها ، والذين يتعمقون فى البحث عن حوادث تلك الأيام وأحوالها وظروفها لا يسعهم سوى الإعجاب بما كتبه الجبرتى كأثر تاريخى هام، وبوميات ذات قيمة كبيرة للمؤرخ [١] بزّيها ما كتبه علماء زمانه أمثال "عبدالله الشرقاوى" "وإسماعيل الخشاب" "ونقولا ترك" وغيرهم لدرجة أن مقارنته بهؤلاء شبهها البعض بمقارنة القمح بالقشور [٢] وعلى أى حال فإن موقف الجبرتى من "محمد على" قد عرض حياته وحياة أسرته للخطر ، وجلب عليه الضرر البليغ فقد ابنه خليل الذى قتله جنود محمد على فى شبرا بعد صلاة الفجر بأوامر من " محمد بك الدفتردار " صهر محمد على ثم ربطوه برجل حماره، ولما أصبح الصباح عرفه الناس بما كان يحمله من دفاتر مكتوبه، وآلات لرصد النجوم والكواكب ، وأخذ الناس فى تناقل الخبر .

ونتيجة لحزن الجبرتى على ابنه فقد بصره ، وترك الكتابة والتأليف ، وظل فى داره منزويا حتى مات ، يضاف إلى ذلك أن منزله بالصنادقيه ومكتبته الحافلة بنفائس المخطوطات قد أحرقا خشية أن يكون فيهما أوراق أو كتابات معادية لمحمد على [٣] ونتيجة لذلك نفر المصريون من كتابة تاريخهم الحديث حتى لا يقعوا تحت طائلة اضطهاد أسرة محمد على كما حدث للجبرتى ، وكرهت أسرة محمد على أيضا أن يشتغل

---

١ – الجدير بالذكر انه لا صحة لما يذاع حول ان هناك جزءا خامسا من كتاب عجائب الآثار لم يصرح بطبعه لما فيه من الطعن على محمد على لأنه توجد نسخة خطية من تاريخ الجبرتى فى مكتبة وزارة الحربية الفرنسيه بباريس ، ولو كان فيها شىء لم ينشر فى الطبعة العربيه لما خفى أمره على المستشرقين والباحثين الأوربيين ..

انظر عوض : المرجع السابق ص ٤٣٨ .

٢ – جاك كرابس : كتابه التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر – ترجمة عبد الوهاب بكر – القاهرة ، الألف كتاب الثانى (١١٨) ١٩٩٣ ص ٨٢ .

٣ – يذكر البعض أن جزءا من تاريخ الجبرتى احترق ، وكان يتضمن حوادث ما بعد سنة ١٢٣٦هـ .

انظر الشرقاوى : المرجع السابق ص ١٦ .

ومن المعلوم أن محمد على أوعز إلى بعض الموالين اليه بنقد كتاب الجبرتى وتجريحه فكتب الشيخ خليل الرجبى كتابا بعنوان " تاريخ الوزير محمد على باشا " عرض فيه لمآثر محمد على وأشاد بأعماله، ورد على ما جاء فى كتابات الجبرتى بشأن محمد على .

المصريون بدراسة تاريخهم الحديث وخاصة أنهم كانوا يريدون ألاّ يدون من تاريخهم سوى ما يروقهم ، وأن يكتب المؤرخ التاريخ على الصورة التى ترضيهم ولا تغضبهم ومن هنا ابتعد المصريون عن كتابة تاريخ بلادهم السياسى وأخذ بعضهم - خصوصا الذين درسوا فى أوربا - فى تنمية ميوله وثقافته عن طريق ترجمة بعض الكتب التى تغطى تاريخ العالم منذ أقدم العصور أو التى تتطرق الى الأمور الثقافية والتربوية والأدبية كما فعل رفاعه الطهطاوى وتلاميذه [١] فقد ترجم رفاعه - الذى بدأ يفكر فى مستقبل الدراسات التاريخية فى مصر بعد عودته من فرنسا [٢] عدة مؤلفات معروفة ومشهورة[٣] كما حاول قدر الإمكان عدم التعرض لواقع مصر المعاصر له وخاصة أسرة محمد على فتطرق للكتابة فى تاريخ مصر القديم ، وفى السيرة النبوية فكتب فى التاريخ القديم « أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى اسماعيل » [٤] وفيه تعرض لعصور الفراعنة والرومان والبطالمة والبيزنطيين وختمه بالفتح العربى لمصر بطريقة جديدة نهج فيها منهجا علميا لم ينقص فيها من قدر أمجاد مصر القديمة أو يلعنها كما كان يفعل سابقوه ، وانما أمن بامجاد هذا التاريخ ، ورغب فى أن تستعيد مصر أمجادها التى كانت عليها فى عهد الفراعنه . وكتب عن سيرة الرسول عليه السلام كتابا بعنوان "نهاية

---

١ - للتفاصيل انظر جمال الشيال : تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على ، القاهرة ، دار الفكر العربى ١٩٥١ ص ١٥١ - ١٥٤ وايضا التاريخ والمؤرخون فى مصر فى القرن التاسع عشر ص ١٩٨ - ١٩٩ .

٢ - كان ثمرة تفكيره مشروعين علميين الأول ترجمة بعض المؤلفات التاريخيه إلى اللغة العربية حتى يضع بين يدى المصريين تاريخا متكاملا يغطى العصور التاريخية المختلفة ، والثانى انشاء مدرسة للتاريخ والجغرافيا ، ويبدو أن هذه المدرسة لم تعش طويلا .

٣ - من هذه المؤلفات .

- نظم اللآلى فى السلوك فيمن حكم فرنسا من الملوك وهو تاريخ فرنسا ويشتمل على مقابلة زمنية بالتاريخ الإسلامى .
- مطالع شموس السير فى وقائع كرلوس الثانى عشر وهو تاريخ لشارل الثانى ملك السويد .
- انحاف الملوك الأبيا بتقدم الجمعيات فى أوربا
- تاريخ بطرس الأكبر

٤ - طبع عام ١٨٦٨ .

الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز " تتبع فيه حياة الرسول منذ مولده إلى وفاته ، كما قدم دراسة هامة عن المؤسسات السياسية والادارية والاجتماعية والمالية فى الاسلام فى محاولة منه للخوض فى هذا الموضوع بطريقة علمية وارفاعه غير هذين الكتابين مؤلفات لها قيمتها التاريخية فحول رحلته الى باريس كتب « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز " أو الديوان النفيس بإيوان باريز [١] " وهو عنوان مسجع على نحو ما كان شائعا فى ذلك الوقت ، وفيه عرض لرحلته فى فرنسا ولحركة الاستنارة الأوربية التى غرستها فيه هذه الرحلة ، فتحدث عن قيام الفرنسيين بخلع الملك شارل العاشر فى عام ١٨٣٠ وقيام ملكية يوليو الدستورية ، وتعرض للمبادىء الدستورية التى غرستها الثورة الفرنسية فى نفوس الفرنسيين والتى نصت على مبدأ تكافؤ الفرص وما للمواطن الفرنسى من حقوق وما عليه من واجبات كما نصت على حرية العقيدة والعبادة وعلى حرية الرأى فى حدود القانون والصالح العام .

ومع أن رفاعة حاول إدخال مبادىء الثورة الفرنسية فى النهضة المصرية الحديثة وفى تاريخ الفكر السياسى المصرى الحديث فانه كان متحفظا فى ذلك إلى حد كبير وعلى سبيل المثال نذكر انه حين اشار إلى مبدأ فصل السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية لدى " مونتسكيو " نجده يتعرض للفكرة الإسلامية التى ترى بأن الشريعة فوق الجميع وأن على المحكومين طاعة الحاكم ، وعلى الحاكم إرضاء المحكومين وارساء العدالة بينهم وممارسة سلطاته بطريقة سليمة فالحاكم لديه يتمتع بكامل السلطات بشرط احترام القانون [٢] .

وحول ما يخص آداب عصره كتب " مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب

---

١ – نشر لأول مرة فى عام ١٨٣٤ ، ثم طبع بعد ذلك ثلاث طبعات ، وترجم فيما بعد إلى التركية ولقى قبولا واسعا بين اوساط المثقفين فى استانبول .

٢ – الجدير بالذكر أن محمد على قرأ هذا الكتاب بعد أن ترجم له إلى التركية ، وطبع بعد ذلك عدة طبعات من أشهرها الطبعة التى اشرفت وزارة الثقافة والارشاد القومى على اخراجها وكلفت الدكتور مهدى علام وبعض الاساتذة بالتعليق عليها والتقديم لها وكان ذلك فى عام ١٩٥٨م .

المصرية [١] " . وهو أول كتاب عربى ينزع إلى الناحية الوطنية [٢] فيذكر معنى الوطن ومصر ومزاياها ويتعرض لفكرة التسامح الدينى والأخوة فى الوطن ، كما يتعرض للمنافع العامة فيخصص لها أكثر أجزاء الكتاب فيذكر الآمال التى يأملها فى المنافع العامة فى كلمات تحفل بمعانى التكريم والولاء لمصر وشعبها فمصر فى نظره أم الدنيا وروضتها ، وأنها دون غيرها من الممالك أعظم تمدينا وتقدما ، كما أن أهلها لديهم درجة عليا من الفنون والمنافع العمومية وهو ما تشهد به الآثار المصرية التى تعد من اكبر مصادر الفخر للمصريين بحكم احتوائها على المقومات الاساسية للحضارة من النواحى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

وفى خاتمة الكتاب يتطرق رفاعة إلى ما يجب على المصريين تجاه وطنهم بأسلوب جمع فيه بين ثقافته الإسلامية وثقافته الفرنسية .

وحول ما يخص تربية الناشئة كتب رفاعة " المرشد الأمين فى تهذيب البنات والبنين" وهو كتاب اخلاق وتربية للمتعلمين والمتعلمات وقد صدر فى عام ١٨٧٢ .

وإلى جانب ذلك قام رفاعة باصدار أول مجلة ثقافية علمية تصدر فى مصر فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر بالاشتراك مع على باشا مبارك وهى مجلة روضة المدارس المصرية التى صدر العدد الأول منها فى الخامس عشر من المحرم عام ١٢٨٧هـ الموافق ابريل ١٨٧٠م وكانت روضة حقه تحفل بثمار جمهرة من الأقلام البارعة وقد طرحت هذه المجلة عدة تساؤلات أهمها :

على أى منهج يكون تحول مصر الحضارى ؟ هل نعود الى الماضى وننعم بالعيش فى فردوسه المفقود ، ونقطع كل صلتنا بالحاضر ؟ أم نقفز قفزا إلى آفاق المستقبل ونقطع كل صلتنا بماضينا المجيد ؟ وكان الجواب حاضرا تجسده شخصية رفاعة

---

١ – نشر لأول مرة فى عام ١٨٦٩ .

٢ – نشر حسين الرصفى خلال هذه الفترة وبالتحديد فى عام ١٨٦٩ كتابه " الكلم الثمان " وفيه تعرض لدراسة الكلمات الجديدة التى وفدت على الفكر السياسى المصرى مثل الوطن ، والحرية ، والأمة ، والعدالة ، والعلم ، والسياسة ، والحكومة ، والتربية .

الطهطاوى الذى كان ثمرة ناضجة من ثمار امتزاج الماضى بالحاضر ، وتكوين مركب جديد فيه أنضر ما فى الماضى من صفحات ، وأعذب ما فى الحاضر من منجزات[١] .

ومع أن رفاعة لم يتخل فى كتاباته عن النظرة التقليدية لمفهوم التاريخ فى بعض الأحيان ولم يستطيع أن يهجر السجع فى كثير من الاحيان فانه قد اضاف اليه لمحات جديدة جديرة بالالتفات والتسجيل منها تقسيمه للتاريخ إلى قديم وحديث وإلى عام وخاص كتاريخ جميع الأمم عامة أو تاريخ أمة واحدة كتاريخ المصريين مثلا ، ومنها عاطفته الوطنية القومية وحبه الشديد لمصر الذى ملك عليه نفسه وجعله يشيد بمصر وفضلها على الحضارة العالمية فهو يصفها بأم الدنيا والوطن ، وأم أمم الدنيا التى "نازعت قدماء الأمم فى الأقدمية ، فسلموا لها أنهم دونها مرتبة فى الأهمية وإن لم تسبقها أمة فى ميدان التمدينية " وأنها أيضا « رحيبة الدولة مهيبة الصولة " كما جعله يعتمد الفصول الطوال فى كتبه المتعددة للتغنى بالوطن والوطنية وأهمية التضحية فى سبيلهما .

ومع أن الطهطاوى كتب عن الوطنية فانه لم ينس أنه مسلم قبل كل شىء وأبرز الأدلة على ذلك ما ذكره فى شعره الذى تغنى فيه بمصر وباريس معا حيث يقول

فكل منهما عندى عروس ولكن مصر ليست بنت كفر[٢]

وعلى أى حال فانه يمكن القول أن التسجيل التاريخى أصبح يفضل جهود الطهطاوى ومدرسته تاريخا بالمعنى الحقيقى لكلمة التاريخ وذلك نتيجة للمنهج العلمى الذى اتبعه ، والدقه والموضوعية التى سار عليها فقدم لنا بذلك رؤية حضارية للاطار العام الذى سارت على النهضة المصرية ، كما فتح الأذهان لما يدور فى العالم من أحداث مما يجعلنا نعده رائدا من رواد حركة التنوير ، كما نجعل مؤلفاته مصدرا رئيسيا خلال كتابتنا للتاريخ ، وقد سبقنا فى هذا الرأى عبد الله النديم الذى طلب خلال فترة اختفائه

---

١ – محمد عبد الغنى وعبد العزيز الدسوقى : روضة المدارس ، نشأتها واتجاهاتها الأدبية والعلمية ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٥ ص ١٣ .

٢ – رفاعة الطهطاوى : تخليص الأبريز فى تلخيص باريز ، تحقيق مهدى علام وآخرين القاهرة البابى الحلبى ١٩٥٨ ص ١٠٥ .

عن أعين السلطة بعد انكسار الثورة العرابية مجموعة من الكتب للاستفادة منها خلال وحدته كان من بينها مؤلفات الطهطاوى .

وعلى الرغم من ذلك فلم يهنأ رفاعه بما قدمه لبلاده من خدمات فبعد ان تولى عباس الأول أريكة الحكم فى مصر أمر بنفيه إلى السودان نتيجة لوشاية نقلها البعض إليه ، واختلفت الآراء فى تعليلها فمنها من قال أن كتاب تخليص الابريز وما به من آراء ومبادىء لا يرضى فيها الحاكم المستبد كان السبب فى نفيه[١] ومنها من يقول أن رفاعه لقى معارضة من بعض المشايخ المتعصبين الذين ربما عدوه متطفلا على ميدانهم فى دراسة الشريعة والفقه فكادوا له عند الباشا[٢] وهناك رأى آخر يقول إن على مبارك الذى عاد من أوربا مليئا بالاطماع الشخصية كان وراء نفى رفاعه إلى السودان [٣] .

وعلى أى حال فقد انكب بعض المعاصرين للطهطاوى على دراسة تاريخ مصر العمرانى والاجتماعى والتعليمى كما فعل على مبارك [٤] فى كتابه " الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة [٥] " والذى يعد من أهم المصادر فى دراسة تاريخ مصر الاجتماعى فى القرن التاسع عشر هذا إلى جانب أن انشاء مجلة " روضة المدارس " كانت من وحى على مبارك وثمار تفكيره حين كان وزيرا للمعارف ، وهو الذى عهد إلى " رفاعة الطهطاوى " بأن تكون تحت نظارته .

---

١ – الرافعى : عصر محمد على ص ٤٨٩ .

٢ – أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر – عصر عباس وسعيد القاهرة ١٩٤٥ ص ٥٨ .

٣ – أحمد بدوى : رفاعة الطهطاوى بك ، القاهرة ، لجنة البيان العربى ١٩٥٠ ص ٤٧ .

٤ – عن سيرة حياته انظر الخطط التوفيقية جـ ٩ ص ٣٧ – ٦١ .

٥ – تشتمل الخطط التوفيقية على عشرين جزءا فى خمسة مجلدات كبيرة ، وقد أراد على مبارك أن يكمل بها ما كتبه المقريزى فى خططه ، وهى عبارة عن موسوعة هامة تضم العديد من التراجم والأعلام ، كما تتناول معلومات هامة عن القرى والمدن المصرية بما فيها من مؤسسات دينية وثقافية خلال القرن التاسع عشر وقد سماها بالخطط التوفيقية نسبة إلى الخديو توفيق ، وقد جاءت هذه الخطط فى بعض الوجوه أتم وأوفى من خطط المقريزى خاصة وان صاحبها تتبع تاريخ الخطط فى ظلمات العصر العثمانى ، وحقق المعالم والمواقع الأثرية القديمة على ضوء الاطلال الدارسة والمنشئات الحديثة التى تفصلها من الماضى قرون طويلة .

ومن المعروف أن هذه المجلة إهتمت بالتاريخ وحرصت على نشر الجداول التاريخية للوقائع العالمية الشهيرة والحوادث الكبيرة ، كما تطرقت فى موضوعاتها إلى بيان سلاطين آل عثمان إلى عهد السلطان عبد المجيد خان .

يضاف إلى ذلك أن "على مبارك" ألف كتبا عديدة فى العلوم والهندسة والثقافة منها "تقريب الهندسه"[١] " ورواية علم الدين [٢] " وكتاب " حقائق الأخبار فى أوصاف البحار [٣] " وكتاب " تنوير الأفهام فى تغذى الأجسام [٤] " وكتاب " نخبة الفكر فى تدبير نيل مصر [٥] " وغيره وإلى جانب ذلك فقد قام " على مبارك " بترجمة كتاب تاريخ العرب لسديو .

السؤال المطروح هل قام على مبارك بتأليف كل هذه الكتب العديدة وحده أم ساعده فى تأليفها آخرون ، وما هى مصادره التى استعان بها خلال تأليفه لهذه الكتب ؟ .

حقيقة أن على مبارك كان شغوفا بالتاريخ ، ولكن هذا لا يعنى أنه قام بتأليف كل ما كتبه فيه بل كان له معاونون خاصة من الذين عملوا تحت ادارته ، وقد أشار على مبارك إلى ذلك فذكر ان أعماله الرسمية الكثيرة جعلت من الصعب عليه أن يكمل مهمة التأليف وحده[٦] .

---

١ – طبع بمطبعة وادى النيل فى عام ١٢٧٩هـ بهدف تعليم الضباط والعساكر أيام سعيد باشا طرق الحساب والهندسة والاستكشافات العسكرية .

٢ – قصة فى أربع مجلدات قسمت إلى مسامرات بلغت ١٢٥ مسامرة وتدور حول رجل أزهرى تتلمذ عليه مستشرق انجليزى تعلم منه العربية وعلمه الإنجليزية وسافر معه إلى انجلترا ، ومن خلال ذلك يرصد على مبارك أهمية الاحتكاك الحضارى بين الشعوب .

٣ – طبع بمطبعة وادى النيل ١٢٨٧ هـ ويبلغ عدد صفحاته ٨١ صفحة .

٤ – طبع بمطبعة المدارس فى عام ١٢٨٩هـ .

٥ – وهذا الكتاب يرسم سياسة مستقبلية لمصر تعتمد أولا وقبل كل شىء على الزراعة المصرية وعلى ما يقوم عليها من تصنيع ثم يقدم بعض النتائج المستخلصة من المقارنات .

انظر محمد أحمد خلف الله: على مبارك وآثاره، القاهرة، الانجلو المصرية ١٩٥٧ ص ٢٠٨ – ٢١٤

٦ – انظر الخطط التوفيقية ، الجزء الأول ص ٢ .

أما عن مصادره فقد قرأ كثيرا من كتب الأوربيين والمستشرقين خاصة الفرنسيين منهم نظراً لأنه كان يتقن الفرنسية ، كما رجع إلى المصادر العربية القديمة وقد أشار على مبارك إلى ذلك بقوله إنه جمع " من كتب العجم والعرب ما يفضى بتأمله إلى العجب، مراجعا كتب العرب والافرنج الذين ساحوا تلك الديار ورسومهم التى بينوا فيها حدود هذه الأقطار " .

واستمرت حركة الدراسات التاريخية فى التقدم بفضل رجال مدرسة على مبارك ومعاصريه فعنى " محمد مختار " باشا مأمور الخاصة الخديوية بالأبحاث والدراسات التاريخية ومن أبرز مؤلفاته فى هذا المجال " التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنجية والقبطية" (من السنة الأولى للهجرة إلى سنة ١٥٠٠هـ[١]) وكتب "اسماعيل باشا سرهنك" ناظر المدارس الحربية "حقائق الاخبار عن دول البحار"[٢] .

ويرجع السبب فى تأليف هذا الكتاب إلى رغبة صاحبه فى إفادة أهل بلاده خاصة وأن المؤلفات التاريخية العصرية فى ذلك الوقت كانت قليلة خصوصا ما اختص منها بتاريخ الدول البحرية ذات الشأن ، واشتمل هذا الكتاب على عرض لتاريخ الانسان منذ الخليقة وتوقف عند عصر " عباس الثانى " ، وتعرض فيه سرهنك لبعض الدول البحرية القديمة والحديثة فتكلم عن موقعها الجغرافى وأرخ لثغورها الحربية والتجارية ثم تعرض لتأسيسها ومشاهير ملوكها ، وماعاصرهم من الأحداث .

ولعل أهم أجزاء هذا الكتاب هو الجزء الثانى الذى انفرد تاريخ مصر بالقسط الأكبر منه . وترجع أهميته إلى أنه مليء بالبيانات والاحصاءات والوثائق الهامة هذا إلى

---

١ – طبع بمطبعة بولاق بالقاهرة فى عام ١٣١١هـ .

٢ – طبع فى ثلاثة اجزاء بمطبعة بولاق .

ويشير البعض اسماعيل سرهنك من كتاب القرن العشرين لانه توفى فى عام ١٩٢٤ ولكننا اثرنا الحاقه بمؤرخى القرن التاسع عشر خاصة وانه الف الجزءين الأول والثانى من كتابه فى أواخره وتم طبعهما فى عام ١٨٩٦ ، وعام ١٨٩٨ .

ومن المعروف ان سرهنك ولد فى عام ١٨٦٧ والتحق بالمدرسة البحرية بعد أن اتم دراسته الابتدائية ، وتخرج ضابطا منها ، وتولى قيادة كثير من سفن الاسطول المصرى ، وشارك فى العديد من العمليات الحربية والبحرية .

جانب تعرضه لتراجم عديدة لمشاهير البحرية والجيش المصرى فى القرن التاسع عشر ، وقد ساعد " سرهنك " فى تأليف هذا الكتاب ثقافته العسكرية ودراسته البحرية لعلوم الفلك والجغرافيا والرياضيات وفن الملاحة ، هذا إلى جانب استيعابه للعديد من اللغات ومنها العربية والتركية والانجليزية والفرنسية .

وقد أهدي المؤلف هذا الكتاب إلى الخديو عباس الثانى بقوله فى مقدمته للكتاب "وقد جعلته هدية إلى سدة مولانا محى الآمال الوطنية ، ومعيد النشأة المصريه عزيز مصر وحامى حمى القطر خديوينا الأفخم وملاذنا الأعظم عباس حلمى الثانى[١] " .

وعلى أى حال فقدسد سرهنك بعض الفجوات التاريخية فيما يتعلق بتاريخ القوى البحرية ، كما استخدم وثائق تاريخية أصلية مدركا أهميتها فى كتابة دراسته ومع ذلك فان ما كتبه يمكن ضمه إلى التاريخ الحولى التقليدى مثله مثل على مبارك ومجموعته .

فعلى الرغم من أن سرهنك حاول أن يكتب عن القوى البحرية فان ما كتبه شمل العديد من المعلومات فى كل المجالات التى خطرت على باله اثناء كتابته [٢] .

وإلحاقا لهذه المجموعة من كتاب التاريخ الحولى كتب " فيليب جلاد " مندوب قلم قضايا نظارة الحقانية " قاموس الإدارة والقضا [٣] " فى سبعة أجزاء واشتمل على مجموعة هامة من القوانين واللوائح والفرمانات والمعاهدات الرسمية فى القرن التاسع عشر رتبت وفقا لتسلسل الزمنى مع بعض التعليقات وهذا القاموس يعد مرجعا مفيدا لمؤرخ التاريخ الاقتصادى المصرى فى نهاية القرن التاسع عشر وكتب " يعقوب ارتين " وكيل نظارة المعارف العمومية " القول التام فى التعليم العام "[٤] باللغة الفرنسية وقام

---

١ – حقائق الاخبار ص ٣ .

والجدير بالذكر أن الجزء الثالث من هذا الكتاب طبع فى عام ١٩٢٣ أى بعد صدور كتاب على مبارك "حقائق الأخبار فى اوصاف البحار بربع قرن تقريباً " .

٢ – ناقش كرايس ذلك فى كتابه سابق الذكر ص ١٩٣ – ١٩٤ .

٣ – طبع الجزء الأول بمطبعة بنى لا خوداكى بالاسكندرية فى عام ١٨٩٩ .

٤ – طبع بمطبعة بولاق فى عام ١٨٩٤ .

على بهجت المترجم الأول بنظارة المعارف بترجمته الى العربية وفى هذا الكتاب عرض المؤلف لتطور التعليم فى مصر فاوضح أن عامة المصريين كانوا يهملون تربية أولادهم ويعارضونها فى بداية الأمر ثم ما لبثوا أن قدروا التربية حق قدرها بحيث أصبحت الطلبات ترد إلى نظارة المعارف من جميع انحاء القطر تطالب بانشاء مدارس لتربية أولادهم [١] . كما تعرض لتطور ميزانية نظارة المعارف والبرامج والخطط التى اتخذتها النظارة لتحديث التعليم .

وإلى جانب ذلك كتب " يعقوب ارتين " الاحكام المرعية فى شأن الأراضى المصرية باللغة الفرنسية أيضا وقام " سعيد عمون " بترجمته [٢] خاصة وأن مؤلفه كان غارقا حتى أذنيه فى الثقافة الفرنسية إلى حد أنه لم يستطع أن يكتب لغة عربية سليمة .

وأرتين كان يفضل فى كتاباته أن تروى الجداول والاحصائيات والوثائق ما يريد أن يقوله مما جعل البعض يعد ما كتبه بانه دراسة مؤسسة على محتويات الأرشيف الحكومى .

ومن هنا لا يمكن اعتبار جلاد أو ارتين مؤرخين فقد كان على الأصح مصنفان للعلوم الاحصائية دون إضافة أى جديد اليها [٣] .

واستمرت الكتابة التاريخية فى طريقها تساير طريقة الحوليات وإن كانت نغمة الاعتماد على المحسنات البديعية فى الكتابه قد خفت حدتها بشكل غير كبير فكتب " سليم النقاش[٤] "البيروتى " مصر للمصريين " أرخ فيه لتاريخ مصر منذ محمد على حتى حوادث الثورة العرابية فى تسعة مجلدات الثلاثة الأولى منها فى تاريخ أسرة محمد على

---

١ - القول التام ص ٦ .

٢ - نشر بالقاهرة عام ١٣٠٦ هـ .

٣ - كرابس : مرجع سابق ص٢٥٣ - ٢٥٤ .

٤ - هاجر إلى مصر فى عهد اسماعيل وعمل بالتمثيل والصحافة ولما قامت الثورة العرابية شايع عرابى فترة ثم انقلب عليها وأصبح واحدا من أقوى المعارضين له ونظل على ذلك الحال حتى توفى فى عام ١٨٨٤ .

حتى خروج اسماعيل من مصر[١] والثلاثة الثانية من ولاية توفيق باشا إلى انقضاء حوادث الثورة العرابية أما الثلاثة الأخيرة فشملت محاكمات العرابيين وصور محاضرهم الرسمية.

قد افاد النقاش تماما من المادة الوثائقية التى توفرت له رؤيتها فبعد أن وافقت دار المحفوظات له على الاطلاع على الوثائق المحفوظة لديها تمكن من رصد الفرمانات العثمانية ، والدكريتات الخديوية ، وتنظيمات الجيش وأوراق عن الأوضاع المالية ، وترتيبات تسوية الديون ، وأوراق العرابيين ، والمحاكمات التى تمت لهم بعد الهزيمة والعديد من الوثائق الدبلوماسية الأخرى .

وترجع أهمية ما كتبه " سليم النقاش " إلى أنه كان شاهد عيان للعديد من الأحداث ، يضاف إلى ذلك أنه لم يهمل الجوانب الاجتماعية والاقتصادية فى كتاباته فتعرض لبعثة اللورد " دفرين " Dufferin ، وتجارة الرقيق ، والقبائل البدوية ، وقيام بعض المصريين بشراء أسلحة وملابس من الانجليز مقابل بيع مشروبات روحيه لهم .. الخ .

ومع أننا لا يمكن أن نصف " النقاش " بالحياد تجاه العرابيين ، خاصة وأنهم أحرقوا له جريدته ، كما أنه يصعب علينا ألا ننتقد أسلوبه فى الكتابة الذى لم يستطع فيه التخلص من السجع والزخارف اللفظية فان ما كتبه يظل مفيدا للمؤرخ الذى يتعرض للثورة العرابية خاصة .

وكتب ميخائيل شاروبيم (٢) " الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث (٣) " وفى هذا الكتاب تعرض المؤلف لتاريخ مصر من بداياته وحتى توليه عباس الثانى أريكة الخديوية بشكل يجمع فى أسلوبه بين طريقة السلف فى الكتابة التاريخية ومحاولة

---

١ - هذه المجلدات الثلاثة أوقفت الحكومة طبعها لأنها وجدت فى ترجمة محمد على والخديوى اسماعيل ما يتحتم حذفه انظر جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية جـ ٤ القاهرة ، مطبعة الهلال ، ١٩١٤ ص ٢٨٧ .

٢ - قبطى مصرى ولد فى حى السقايين بالقاهرة فى عام ١٨٦١ وتقلب فى مناصب عديدة .

٣ - صدر فى أربعة أجزاء بين عام ١٨٩٨ ، ١٩٠٠ ويتكون من ١٧٣٨ صفحة من القطع الكبير .

مواكبة الأسلوب الحديث البعيد عن السجع والتكلف وقد استخدم فى كتابته طريقة الحوليات ، واستطاع أن يرصد بها قدرا كبيرا من الحوادث والمعلومات التاريخية بشكل أراد به أن يثبت وحدة تاريخ مصر واتصاله بشكل لا ينقطع .

ومع أن أسلوب هذا الكتاب وطريقته ينتميان إلى كتابات مؤرخى العصور الوسطى من حيث أن صاحبه لم يهتم بذكر قوائم مراجعه أو المصادر التى إستقى منها كتاباته فان رصده للوقائع لم يخلو من التحليل والتعليق فى بعض الاحيان ، كما أن تخلصه من الأنماط الأسلوبية القديمة إلى حد كبير وابتعاده عن السجع وتقييمه للحوادث يجعله يفترق عن مؤرخى العصور الوسطى .

وعلى أى حال فانه نتيجة للتطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى مرت بها مصر فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر والاحتكاك المباشر بين ثقافة الشرق وثقافة الغرب وما اعقبه من تدخل اجنبى فى شئون مصر ، ثم حضور جمال الدين الافغانى ، وظهور الصحف السياسة ، وقيام الثورة العرابية وانكسارها والاحتلال الانجليزى لمصر وانبعاث الحركة الوطنية على يد مصطفى كامل ومحمد فريد وغيرهم من رجالات مصر أكبر الاثر فى ازدهار الحركة التاريخية خاصة بعد أن بدأ المصريون يكتبون عما يجيش فى صدورهم من موضوعات سياسية ووطنية ، وعما يعانيه وطنهم من آلام وما يجيش فى صدورهم من آمال بهدف حفز الهمم وايقاظ العقول وتقوية الوعى الوطنى لدى أفراد الشعب المصرى .

حقيقة أن ما كتبه معظم أفراد هذه المدرسة لم يهدف إلى خدمة الدراسات التاريخية ، أو لإقرار واقع تاريخى بقدر ما كان شغلا لأوقات فراغهم أو ابراز لمواقف معينة وقد اسهمت الصحافة فى ذلك بجهد كبير فساعدت على تكوين الرأى العام ، وشجعت المصريين على التحدث عن شئون بلادهم بصراحة ، كما دفعتهم الى التعبير عن آمالهم وأهدافهم .

ومن المعروف أن الصحف المصرية فى ذلك الوقت تجاذبتها تيارات مختلفة ، فكان هناك التيار الوطنى الثائر الذى تمثل فى كتابات " جمال الدين الافغانى " وتلاميذه

والتى تمثلت فى العديد من الصحف أمثال " مصر " والتجارة " والطائف " " والزمان " "والمفيد" " وأبو نظارة " ، وهناك الصحف المناوئة للحركة الوطنية والتى تدافع عن الانجليز ، وتتغنى بمحامدهم ، وتشيد بنعمة الاحتلال مثل " القطم " والمقتطف " " والاهرام " ، كما كان هناك الصحف الموالية للتيار العثمانى الذى يستمد قوته من الأصول المتعددة التى تربط مصر بالدولة العثمانية ويتخذ من تيار الجامعة الاسلامية مظهرا له مدفوعا بالولاء الدينى وقد مثلت صحف " مصطفى كامل " هذا التيار أبلغ تمثيل وعلى الرغم من ذلك ، وبالرغم من أن الصحافة قد لا يتسم أسلوبها فى بعض الأحيان بالموضوعية فانها كانت عاملا من عوامل النهضة التاريخية الحديثة .

يضاف إلى ذلك أن ما كتبه قادة الثورة العرابية من مذكرات فى اواخر القرن التاسع عشر كان مفيدا إلى حد كبير فى تغذية الروح القومية لدى المصريين، وتفهم وقائع الاحداث، وانعاش الحركة التاريخية بوجه عام وأبرز الأمثلة على ذلك ما كتبه "محمود فهمى المهندس" و "عبدالله النديم" و "الشيخ محمد عبده" و "أحمد عرابى" من مذكرات خلال فترة النفى أو الاختفاء فكتب محمود فهمى المهندس [١] " البحر الزاخر فى تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر[٢] " ذلك الكتاب الذى ساير طريقة الحوليات الذى تطرق إلى تاريخ العالم منذ أقدم العصور وامتد إلى أواخر القرن التاسع عشر، وأهم ما فى هذا الكتاب ما كتبه المؤلف عن الثورة العرابية ووجهه نظره تجاهها، وترجع أهمية ما كتبه إلى أنه كان أحد شهود العيان الذين شاركوا فى هذه الثورة ، وكان من رجالها البارزين ، ومع ذلك يتضح من كتاباته تحامله على عرابى حتى وصل به الأمر إلى التجنى على الحقائق التاريخية وقد يرجع ذلك إلى خصومه حدثت بينهما فى المنفى[٣].

---

١ – توفى فى السابع عشر من يونيو ١٨٩٤ فى منفاه بسيلان ، ومما كتبه عنه طبيبه أنه كان نشيطا ، ويهوى المكتبه ويقوم بترجمة كتب التاريخ من الإنجليزية إلى العربية .

انظر لحيفة سالم : عرابى ورفاقه فى جنة آدم ١٨٨٣ – ١٩٠١ القاهره ، الانجلو المصريه ١٩٨٦ ص ٨١

٢ – طبع هذا الكتاب فى عام ١٣١٢هـ فى مطبعة بولاق بالقاهرة أى بعد وفاته بعوالى عام .

٣– انظر البحر الزاخر جـ ١ ص ٢١٠ – ٢٣٧ .

وإلى جانب ذلك فلمحمود فهمى مفكرات عن الثورة العرابية موجودة بدار الوثائق القومية بكورنيش النيل بالقاهرة تحت عنوان " أوراق الحضرة الخديوية والثورة العرابية " وهي عبارة عن مذكراته الخاصة حول ما شاهده اثناء ضرب الاسكندرية والأعمال التى قام بها ، ومذكرة عن تسليم نفسه للانجليز ومذكرة للخديو يتنصل فيها من التبعات التى أخذت عليه وتنصراف منه إلى عرابى يخبره فيه بالحالة الحربية ، وما وصلت اليه من سوء .

وعلى الرغم من خروج " محمود فهمى " على الموضوعية فى بعض الأحيان فان ما كتبه يعد من المصادر الهامة فى دراسة تاريخ الثورة العرابية وأحداثها .

وكتب عبدالله النديم مذكراته السياسية تحت عنوان " كان ويكون [1] أثناء فترة اختفائه عن أعين الانجليز والحكومه من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٩١ وتتضمن هذه المذكرات موضوعات دينية وأدبية وتاريخية وسياسية ومقارنات بين الأمم والأجناس الشرقية والغربية في أحوالهم وأطوارهم واختلاف طرقهم ومناهجهم كما حكي النديم فيها عن أحواله فى الفتره التى كان مختفيا فيها ، ومذكراته عن الثورة العرابية، ورسائله إلى عرابى ، وإلى جانب ذلك فللنديم مؤلفات عديدة تعرض معظمها للضياع وما تبقى منها مثل كتاب " المسامير [2] الذى كتبه فى هجاء " أبو الهدى الصيادى " وما تم جمعه تحت عنوان " سلافة النديم " يثبت أن أفكار النديم السياسية والاجتماعية كانت سابقة لأفكار أبناء وطنه ، وكانت جديدة عليهم لم يسمعوا عنها من قبل حيث نبه افكارهم الى موضوعات جديدة أيقظ بها الرأى العام المصرى بعد فترة رقاد .

وكتب الشيخ محمد عبده " تاريخ أسباب الثورة العرابية [3] " بين فيه أسباب هذه الثورة وحوادثها ، وتوقف عند مظاهرة عابدين. وقد بدأ الشيخ محمد عبده كتابه بوصف أحوال مصر عندما نزل الخديو اسماعيل عن العرش، وظروف تولية الخديو توفيق،

---

١ – قمنا بنشر هذا الكتاب مع عمل مقدمة تحليلية له بالهيئة المصرية العامة للكتاب عن طريق مركز تاريخ مصر المعاصر .

٢ – قمنا بنشر هذا الكتاب مع عمل مقدمة تحليلية له عن طريق مركز تاريخ مصر المعاصر .

٣ – نشر محمد رشيد رضا هذا الكتاب ضمن كتابه تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده جـ١ ص ١٥٩ وما بعدها .

كما أوضح أن النهضة الوطنية التى ظهرت فى مصر خلال هذه الفترة ترجع إلى "جمال الدين الأفغانى" وما له من أثر على ازدهار الصحافة العربية وترقية أفكارها .

وقد أوضح الشيخ " محمد عبده " انه لم يكن راضيا عن حركة العسكريين فى بداية الأمر لأنه كان يرى ضرورة الاهتمام بتربية وتعليم الأمة ، ويتوقف الكتاب كما ذكرنا عند حادثة عابدين وعزل رياض باشا وتولية شريف مكانه ، ولم يتم الشيخ محمد عبده باقى أحداث الثورة نظرا للخلاف الذى حدث بينه وبين الخديو عباس الثانى بسبب ما ذكره عن اسراف جده اسماعيل ، وسوء إدارته للبلاد . وعن نقده للخديو توفيق لعدم تمكنه من وقف التدهور الذى حاق بمصر .

ويعُد هذا الكتاب من الكتب المهمة فى دارسة أسباب الثورة العرابية وأحداثها ، ووجهة نظر الشيخ محمد عبده فى بعض رجالها ، وتبرز أهميته أيضا فى أن الشيخ محمد عبده عبّر عن وجهة نظره كأحد تلاميذ الأفغانى الذين لم يحسبوا للعسكريين حسابا اثناء مناداتهم بالاصلاح ، وفى أنه أحد شهود العيان الذين شاهدوا الأحداث ، وشاركوا فى اتخاذ بعض القرارات الهامة التى اتخذها العرابيون للدفاع عن مصر .

وكتب أحمد عرابى " كشف الستار عن سر الأسرار فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية[1] " وهذه المذكرات تضىء للمؤرخين بعض النواحى ، وتذلل لهم سبل البحث ، وتزيح الريب والشكوك عن الثورة وزعيمها وقد تعرض عرابى فى هذه المذكرات لنشأته ونسبه والأحداث التى تعرضت لها مصر أيامه ، وأبرز ما يمكن أن تستخلصه مما كتبه عرابى أنه استعمل لفظ " المصريين " و " الأمة المصرية " بمعناه الحديث واعتبر غير المصريين اجانب سواءٌ كانوا من الأتراك أو الأرمن أو غيرهم ، سواء كانوا من المسلمين أو النصارى كما أنه فى حديثه عن الحملة الحبشيه إنهم اركان الحرب الأجانب العاملين فى الجيش المصرى بالخيانة وبأنهم كانوا السبب فى المأسى التى تعرض لها الآلاف من الجنود المصريين وانتهت بإبادتهم ، يضاف إلى ذلك اتهامه للخديو اسماعيل بعد خروجه من مصر بأنه سرق من الخزانة ثلاثة عشر مليونا من الجنيهات .

---

١ – مخطوط تحت رقم ١٥٤٢ علما بأنه يوجد بدار الكتب نسخة مصورة عن الأصل المخطوط تحت رقم (ح٢٤٩٥٥) وتم نشر أجزاء منها .

وعن الأحكام التى صدرت على زعماء الثورة ذكر عرابى أنه حكم عليه بالإعدام ومعه ستة من زملائه ، ولكن استبدل ذلك الحكم بالنفى المؤبد من مصر وملحقاتها ، كما صدرت الأوامر بمصادرة أملاك العرابيين ونفيهم الى سيلان حتى أمر الخديو بالعفو عنهم فى عام ١٩٠١ بعد غياب دام تسعة عشر عاما واربعة اشهر .

والجدير بالذكر أن عرابى فرغ من مذكراته فى السادس والعشرين من يوليو ١٩١١ .

وعلى الرغم من الأهمية الكبرى لهذه المذكرات من الناحية التاريخية خاصة وأن قائدالثورة العرابية هو كاتبها ، فان ما بها من معلومات يحتاج من الباحثين إلى تمحيص وتدقيق للكثير مما ورد فيها .

وجملة القول أن كتابات ومذكرات قادة الثورة العرابية كان لها أبرز الأثر فى تفهم العديد من الأحداث وايضاح الكثير من الحوادث التى لم يتطرق الآخرون اليها .

وهكذا يتضح أن ماكتبه زعماء الثورة العرابية فى مؤلفاتهم أو مذكراتهم انحصر إلى حد كبير فى تعليل أسباب قيامهم بالثورة وشرح وقائعها والتنصل من تبعاتها وأسباب فشلها ولعل السبب الذى دفعهم الى هذه الكتابات هو شغل أوقات فراغهم سواء خلال فترة النفى أو الاختفاء لذلك تأثروا جميعهم بأحوالهم غير المرضية اثناء الكتابة وانصب ذلك على قيام بعضهم بالخروج على الموضوعية فى بعض الأحيان .

ومهما يكن من أمر فإن ما كتبوه يُعد لونا جديدا من ألوان الكتابة التاريخية عرفته مصر فى أواخر القرن التاسع عشر ، ولم تكن لها معرفة به من قبل [٦] .

وعلى أى حال فبعد فشل الثورة العرابية لم تتوقف حركة النضال الفكرى فاشترك الافغانى مع محمد عبده فى اصدار جريدة العروة الوثقى فى باريس لمهاجمة الاستعمار والدعوة إلى التضامن الاسلامى .

ولم يتوقف الأمر على النواحى السياسية فحسب فقد ظهرت فى مصر بعض الأفكار الاجتماعية المتأثرة بالتيار الليبرالى الأوربى فدعا قاسم امين إلى تحرير المرأة

٦ – الشيال : التاريخ والمؤرخون ص ١٧٤ .

فى كتابيه " تحرير المرأة [١] " و " المرأة الجديدة [٢] " وأرجع الاضمحلال الذى تعانى منه مصر إلى وضع المرأه المصرية وتخلفها ورأى أن العلاج الناجع لذلك هو التعليم .

وفى نهاية هذا الفصل يمكن القول أن تطور حركة التأليف التاريخى فى القرن التاسع عشر ذلك القرن الذى أخذ فيه الشرق يصحو من ثباته ، وينفض عن نفسه غبار الخمول والتخلف كان لها أثرها الواضح فى ازدهار الحركة التاريخية فى مصر فى القرن العشرين .

حقيقة أن هذه الحركة لم تقم على أكتاف مؤرخين متخصصين وإنما قامت على أكتاف الهواة ومشاق التاريخ الذين قدموا دراسات رائدة وإن كان معظمهم قد اهتم بالجمع والتنسيق والمنمقات البديعية أكثر من التدقيق والتحقيق والذى برز منهم العديد من كتاب التاريخ الثقاه أمثال عبد الرحمن الجبرتى ذلك الشيخ الأزهرى الذى دون الحوادث والوقائع كما رآها بعينه أو سمعها بأذنه من معاصريه، والذى يعد ما كتبه امتدادا لنظام الحوليات ورفاعه الطهطاوى الأزهرى المتفرنج الذى تمثل كتاباته نقطة تحول بارزة فى تاريخ الفكر السياسى المصرى وان كانت معظم كتاباته لا تخلو من السجع الأجوف، وعلى مبارك الذى كان مصنفا وجامعا وكانت اهتماماته بالتاريخ واضحة رغم انه كان مهندسا ومحمد عبده الذى اشتهر بمحاولاته فى التوفيق بين الدين والعلم الحديث وعبدالله النديم الذى هاجم عيوب مجتمعه بأسلوب يمتزج فيه التبكيت مع التنكيت-وغيره.

وحقيقة ان هذه الكتابات فى مجملها لم يلتزم فيها أصحابها بقواعد الكتابة الحديثة، خاصة وانهم عبروا عما كتبوه بطريقة عصرهم ولم تكن الكتابة التاريخية وظيفة أساسية فى حياتهم ومع ذلك فيحمد لهم ما كتبوه خاصة وأنهم أضاءوا الطريق لمؤرخى القرن العشرين الذى برزوا بدراساتهم الأكاديمية خاصة بعد افتتاح الجامعة المصرية

---

١ – نشر لأول مرة فى عام ١٨٩٩ .

٢ – نشر لأول مرة فى عام ١٩٠٠ .